ماوراء القبور!!

زهيرة البيلى

هذا المخبر السرى ببى الطلعة والملامح ، خفيف ، أنيق ، جذاب بالرغم من الصلع الذى بدأ يزحف على شعره . . يملك هذا الشىء الذى يجعل من رجل البوليس التقليدى صورة محببة أو مكروهة ، فهو صاحب الابتسامة الساخرة الغريبة .

هذا المخبر السرى سيطرت عليه فكرة واحدة التصق بها تماما ، فهو لم يلتق أبدا فى حياته بمتهم أو امرأة إلا وجد شبئا يلوم به نفسه لأنه تشكك من النوع العام العادى . إلا أنه يشكل جزءا أساسيا من طبيعته العميقة . . الشىء الذى جعل هذه القصة الغريبة أخبة خاصة . لأنها نسجت بخيوط الخديعة والكذب .

فى أحد الأيام جاء صديق للمخبر السرى يخبره أنه سوف يذهب مع زوجته لزيارة عرافة معروفة ، إنها امرأة رائعة تكشف عن الغيب . . عن طريق اتصالها بإحدى الأرواح ، وهى لامرأة ماتت مقتولة منذ أيام ، وهنا ضحك المخبر السرى هازئا من صديقه ، رافضا الذهاب معه بحجة كثرة العمل وضيق الوقت ، لكنه أمام تصميم الصديق وتأكيده على أن العرافة تحكى وقائع جريمة كاملة بكل تفاصيلها – تراجع المخبر فى قراره .

وفى اليوم التالى صعد المخبر السرى السلم فى مبنى برجوازى بحرسيليا خلف صديقه الذى أخذ يتنفس بصعوبة مثل عجلى البحر . . وكان الصديق يعمل فى التدليك وهو يظل مساحة سمانى ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون بدينا شديد السمنة . . بسبب التكاك بفخاذ ربطية جذابة تحيد الطهى وزوجها ، ولكنها نجحت فى قيادته طيفا نحواها .

وأمام إحدى شقق الدور الثالث . . فتح زوج العرافة الباب ، إنه رجل ليست له مهنة معينة يزديها . إلا وظيفة واحدة محددة . . هى حماية زوجته ، ولقد انحصر عمله هذا فى كيفية الحفاظ عليها وتنسيق مواعيدها وشراء الحاجيات من السوق وطهى الطعام ومراجعة الحسابات .

وكان الزوج يهذا الوضع ضروريا لها بالفعل . إذ كان يرعاها من العمل المرهق الشاق . وكانت الوسيطة ضخمة الجسم . ترتدى الملابس السوداء وشعرها الرمادى منسق فى خصلات متوازية . لذلك بدت كأنها ترتدى باروكة . . سارت العرافة بخاخر . فانبعث منها رائحة لاهى بالزعفان ولا بالبخور . ولكن رائحة كريهة اطلقت لتثير تقزز الحاضرين . . وبالرغم من وزنها او ضخامة جسمها وصرامة وجهها فإنها بدت شديدة الحساسية الشىء الذى لم يكف الزوج عن الإشارة إليه وأيضا للحاضرين . وكانت بالفعل من ذلك النوع الذى لا يقوى على تحمل أية مشكلة من مشاكل الحياة اليومية البسيطة .

رتب الزوج المقاعد حول مائدة مغطاة بقرش من القطيفة السوداء . لتبدأ الوسيطة عملها على الفور . وبيدها اليمنى أمسكت ، قلم رصاص ، بينما زوجها ، ربه ، طبلة الجلسة . وفوق كراسة صغيرة بدأت بكتابة كل ما يوحى لها به . أما عندما تكون الإيحاءات سريعة فإنها تتحدث بصوت مرتفع . .

كانت الساعة التاسعة مساء عندما ضغط الزوج بقدمه على مفتاح كهربائى لتخفيض الإضاءة تدريجا . . ووسط الضوء الخافت الذى تطلق القلم على الورقة البيضاء بقوة واحدة ، فدرجة أن السن تحطمت . وأخذ الزوج يقرأ بصوت مرتفع الكلمات الآتية من العالم الآخر من وراء القبور .

أحس الحاضرون بخيرة واوبلبك ، إذ وجدوا أنفسهم فى جلسة فريدة من نوعها ، لا مثيل لها ، حتى المخبر السرى نفسه الذى لا يصدق تلك الأوهام بن جامدا فوق مقعده لا يقوى على الحراك . خوفا من أن يسبب أى قلق يؤثر على الوسيطة والروح الزائرة .

أراد المخبر فقط أن تستمر العرافة فى أداء مهمتها . ولكن لأنه رجل بوليس فهذا لا يمنعه من أن يكون مشاهدا مهذبا . بعد أن « برى » زوج العرافة قلم الرصاص أخذ القلم يجرى على الورق . . « إننا فى عام ١٩٣٩ فى مرسيليا . . زوجى لاجرين . منذ سنتين تحول إلى رجل عنيف قاس شرس . »

وهنا تحطمت سن القلم مرة أخرى . ولكن شجيش الوسيطة بالبكاء . . بالطبع لم تكن هذه الدموع أية علاقة بالقلم الرصاص . ولكن تحولت الوسيطة وأصبحت تتصرف تماما وفقا للروح التى لبست جسدها .

لم تكن سوى صورة مجسدة لهذه المرأة التى احتفت والتى لم يسمع عنها أحد . وبيدها أمسم الزوج يمنى القلم . أكملت الوسيطة حديثها بصوت لاهث ، زوجى من النوع الغيور لا يكف عن تعذيبى . إنه يريد قتل بالسم » .

أحبب المخبر السرى بدهشة كبيرة . فهو لا يستطيع أن يصدق ما يحدث حوله . فى بداية الأمر كان يتحكم فى نفسه حتى لا يبتسم . ولكن الآن أخذ ينظر حوله ويكل فضول متيما ردود فعل الحاضرين وقد التصق كل منهما بالآخر . ووسط هذ الجو المظلم الكئيب أكملت الوسيطة قصتها كتابة أحيانا . وبرواية أحيانا أخرى .

كانت القتيل وزوجها ، طبقا لما رواه الوسيطة ، يقيمان فى مجيات أقيم مكانها اليوم مبنى حديث مكون من خمسة طوابق . ولدت المرأة وسط عائلة ميسورة الحال على عكس الزوج .

فجأة تحول صوت الوسيطة ، فأصبح شديد الخشونة خافتا عميقا ، وأخذت تدمر : « حذى هذه ! » وكان الصوت للزوج الذى يريد قتل زوجته بالسم . لقد كانت المرأة تتعاطى كل يوم نسبة بسيطة محددة من السم . وبمرور الأيام بدأت صحتها تضعف . وهذا الزوج يعجل تلك المؤامرة القطيعة التى دبرها لزوجته بالقتل بالسم على جرعات صغيرة .

فى أول الأمر تصور المخبر السرى أن العرافة تقوم بتمثيل دور الوسيطة . فأخذ يتأمل وجوه الحاضرين بادئا بالزوج . وهل هم حقا يصدقون ما تفعله تلك المرأة أو أنهم يتظاهرون بذلك ؟ ! أخذ صوت الوسيطة يتحول تارة للزوجة وتارة للزوج الشرير الذى يأمرها بتعاطى السم .

عند هذه الكلمات المكتوبة تحدثت الوسيطة بصوت خافت كما لو كانت تحدث نفسها . أركيا لو كانت تخشى أن يسمعها أحد . إنها خائفة من انتقام ذلك الزوج الجلاد . فهى تعرف أنه يريد لها الموت . ولكنها لا تقوى على مواجهته . وهى تعرف أيضا أنه يفضل عليها لاعبة أكروبات تعمل بالسيرك .

أحس المخبر السرى أن الوسيطة بالغت . وأنها قالت الخدود . إنه بالفعل القالب التقليدى للقصة الشعبية المعروفة . ومع ذلك أخذت الوسيطة تصف ما حولها بكل دقة ، امرأة عجوز تؤدى ألعابها تحت خيمة السيرك وأمام مئات النظرات القلقة . . بعد أن « برى » الزوج قلم الرصاص أخذ يقرأ البقية متتبعا تطوير الأحداث على الصفحة . كانت الزوجة المسكينة تنتظر مولودا ، ولكن الزوج الشرس استمر فى تصرفاته الشاذة تجاه زوجته ، واستمر فى عمله المدمر . وأحست الزوجة أن كل يوم يمر عليها . يؤدى بها إلى محاولة أكيدة لدفعها إلى الانهيار وبلا مقاومة أو صراع ضد هذا الموت البطىء . .

لم تتحد صورة العنف هذه المرة . تناولت جرعات السم ولكن مع ضربات مبرحة . . انهارت الوسيطة وقد مدت جبهتها إلى الأمام على المائدة ، وفوق الورق أخذت تئن « طفل ! طفل ! »

وهنا بدأ المخبر السرى يشعر بحقيقة الموقف فشعر بالضيق . إذ وجد أن العرض أصبح غير لائق . فأخذ يقاوم رغبته فى الوقوف والانصراف ، ولولا اندماج بقية الحاضرين وتأثرهم الشديد . . لخرج على الفور . . فحالته نفسه قائلا إن لحظة الانصراف لم تحن بعد . ويقبض أسلوبها الإيحائى والضغط على الأحاسيس والمشاعر . . بدأت الوسيطة تحكى كيف إن هذا الجلاد فاقد الحس قاسى القلب ، استمر فى ضرب زوجته التى تحمل له الكثير الصغير . كانت الأمومة هى آخر أمل تتعلق به الزوجة ، مثل غريق ضائع يبحث عن النجاة . إلا أن الزوج نزع منها آخر أسباب الحياة . وبانهارت المرأة دون إدراك . لا تدرى من يستطيع إنقاذها من هذا الجحيم وهذا السقوط . فالذين يشاركونها مخاوفها لا يصدقونها ، لذلك كتمت لأحبها الذى يقيم فى فنزويلا . لتشكو له قسوة زوجها . وكان هذا هو ملجؤها الأخير . بعد فترة من الوقت رد الشقيق طالبا من أخته الهجرة إليه والعيش معه تاركة هذا الزوج الشرس . وأكملت الوسيطة قائلة : « أخى الحبيب . تعالى . يجب أن تنقذى حياتك وحياة طفلك . »

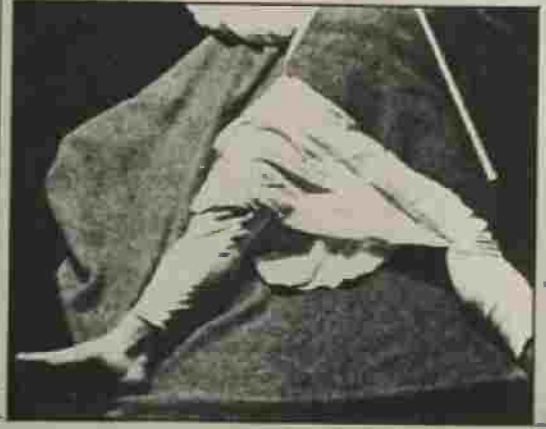

تصميم محمد ابراهيم

أما زوج الوسيطة الذى انتهى ثراه من قراءة الخطاب بصوت أجش. فقد سكت فجأة. ومن شدة التأثر أخذت الوسيطة تهز رأسها بعنف وجحظ العينان. ليستأنف القلم السباق الذى ترجمه صوت الروح من جديد. لم تتمكن الروحة المسكينة الشجاعة لتلحق بأخيها. لقد مات الطفل قبل موعد الوضع. وكانت الضربات التى تلقتها الأم سببا للوفاة. بقيت المرأة لساعات طويلة فوق سرير حقير بجانب الضحية الصغيرة دون أن تحاول إنقاذها أحد. كانت تعرف منذ تلك اللحظة أن كل شىء سوف ينتهى كما قالت الوسيطة «لتنتهى الآلام وحياتها معا».

بدأ الخبير السرى عاصا نافرا. كيف إنهم يحتجونه أحمق هذه الدرجة. فبدأ يضغط على أسنانه لكنه لم يستطع الدفاع عن نفسه. فأحس كأنه يعيش كابوسا حقيقيا مع هذه المرأة وتلك الصورة الرهيبة التى لا يمكن تصديقها. للحظة أحس أنه يسمعها ويراها غاما كما لو كانت أمه. بدأت الوسيطة تتلوى من شدة الألم. تعلقت الأم بروحها. وبصوت مخنوق ووسط حشرجة الموت أخذت تصرخ «سوف أموت!.. لقد وضع فى السم؟.. إننى أتألم!.. سوف أموت!..».

وأسلمت المرأة الروح وسط آلامها الفظيعة لتنتهى القصة عند هذا الحد. وكما اعتاد الخبير السرى الذى استعد للنهوض. ولكن فى الحقيقة فإن الوسيطة لم تنته بعد. لن يترك الروح الشرس جسد زوجته المسكينة جامدا يرقد فى سلام القبور. خوفا من أن يقع فى قبضة العدالة. وحتى لا يتهم بأنه ترك زوجته دون إسعافات حتى الموت.. فكر بسرعة.. وهنا أخذ القلم الرصاص يجرى من جديد. وأخيب الخبير السرى بالذهول. وأخذ يسأل نفسه فيما يمكن أن تخترعه الوسيطة. فلم يبق شىء لتكتمل الأكذوبة. ولكن طبقا لرواية الوسيطة. أخذ الروح يتقطع زوجته بواسطة منشار إلى أجزاء كونها داخل كيس. ثم ألقى بها فى مزبلة عمومية. وانتظر الخبير السرى البقية. ولكن هذه المرة أسدل الستار على الفصل الأخير. وبتدخيل أخذ الروح يمسح رجه الوسيطة التى عادت قواها من شدة التعب. وانهارت على مقعدها بينما استمرت بقية قطرات من الدموع فى الانسياب. وبيطء حرك الروح بقدمه المفتاح الكهربائى. وانتشر النور ليعم من جديد المدخنة. ويضىء تلك الوجوه الداكنة. وأحس الخبير أنه يقبل من كابوس حقيقى. عاش لكنه لم يصدقه. وبحيطة شديد أخذ يلوم صديقه بينه وبين نفسه.. هذا الصديق الذى قال به ليشاهد هذه التراجيديا الكوميدية. لكنه لم يجرؤ أن يقول له شيئا واكتفى بالنظر إليه فى غيظ. بعد صمت طويل سأله أحد الحاضرين: «ماذا سوف تفعل أيها الخبير؟»

وبالنسبة للمخبر جاء هذا السؤال ليكون قد جاء الحاضرين.. هؤلاء الناس الذين لم يحتفظوا فقط أنه صدق القصة الغبية. بل يريدون منه أيضا التصرف.. ربما حدث كان من الصعب عليه أن يضحك فى وجوهم أو ان يسخر منهم علنا. لما زالت ملامحهم تحمل آثار تلك التعبيرات المأساوية.

لذلك وجد الخبير السرى لنفسه مخرجا كاذبا.. شرح أنه طبقا لما حدث أمامه.. فإن الوقائع دارت فى عام ١٩٣٩. أى منذ أربعين عاما. وهذه مدة كافية لإسقاط أى حق فالوف.

لذلك فلا فائدة من الحاح أى اجراء مضاد. ومع ذلك ضغط الحاضرون أنه يمكن على الأقل العثور على الروح. ولكن يتخلص الخبير من تلك الجلسة وحتى يتصرف بأسرع ما يمكن. وعد بأنه سوف يبحث عن ذلك الزوج. لم يتحيل الخبير السرى أن هذا الوعد سوف يقوده إلى سلسلة من الأحداث التى لا يمكن تصديقها. فهذان الزوجان لها وجود فعلى. وبالبحث فى أرشيف مقر عمدة مرسيليا عثر الخبير على اسم الرجل وزوجته.. الذين جاءا من الأندلس للإقامة فى مرسيليا. وبعد أن طردا بسبب نشوب الحروب الأسبانية عام ١٩٣٧. ومع ذلك لم تكن تلك المعلومات تأكيدا كاملا. وهذا لأن الوسيطة تبلغ الثانية والستين من عمرها. ويمكن أن تكون العراقة قد عاصرت تلك الأحداث. ولكنه أثناء سفره إلى باريس التقى بصديق الطفولة الحسية رئيس فرقة بوليس السكرتارية العامة لانتربول باريس. ومثل كل الإنجليز جمع ذلك الصديق بين الشكك والسذاجة. الشىء الذى يجمع منه رجل بوليس من الطراز الأول. وهذا لفضوله الزائد.

وجريا وراء هذا الفضول المشل رأى الرجلان أن يدفعا بالأحداث إلى المنتهى. فأرسلا فى طلب المعلومات من المكتب المركزى لانتربول مدريد. ليرد بالحروف الكبيرة أنهم لا يعرفون ناجر الذى. لكنهم تعرفوا على اسم الزوج الذى حكم عليه بالسجن بتهمة الاحتيال.

تزوج الرجل فى عام ١٩٣٧ من فتاة ولدت فى أسبانيا فى ١٨ يونيه عام ١٩١٥. بعد ذلك غادر الزوجان أسبانيا. وتما أن شقيق القتيل يعيش فى فنزويلا فقد طلبت المعلومات من مكتب انتربول كراكاس. وبعد ثمانية أيام تلقى انتربول باريس رسالة مذهلة أفادت بأن هذا الشقيق ولد فى أسبانيا يوم ٩ يناير عام ١٩٠٤ ويعمل بالتجارة. وبسؤاله اعلن أن شقيقه تزوجت فى أسبانيا فى بداية الحروب الأهلية من جار يعمل لناجر بن. وكان الشقيق وأسرته ضد هذا الزواج. إذ كان الرجل سيىء السمعة. ومع بداية الحرب الأهلية سافر الشقيق للاستقرار والإقامة فى فنزويلا. بينما سافرت الشقيقة وزوجها للإقامة فى مرسيليا. وتبادل الشقيقان الخطابات حتى صيف عام ١٩٣٩. وأثناء الحرب كتب الشقيق إلى مقر مدعل، الرون، طلبا للمعلومات. فردوا عليه قائلين إن الزوج تقدم فى شهر أغسطس ١٩٣٩ إلى البوليس يبلغ عن اختفاء زوجته.

وفى بداية شهر سبتمبر تعرف البوليس على جثة الزوجة التى عثروا عليها أشلاء وسط مزبلة عمومية. وظاهريا لم تكن الخرجة عالقة أو مرتبطة بالزوج. ولكن ظل الشقيق يشك فى مقتل أخته. رغم أنه لم يستطع تتبع الأحداث. إذ نشبت الحرب فى أوروبا.

وبعد الحرب فى عام ١٩٤٥ حاول الشقيق استئناف البحث عن أخته ولكن دون جدوى. وبعد أن علم الخبير السرى بتلك المعلومات الجديدة أخذ يبحث فى أرشيف وسجلات البوليس الخاص بمرسيليا. وتلقى تأكيدا جديدا: تم العثور بالفعل على جثة امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها زوجة لتاجرين. عثر عليها وبعد أن مزقت إلى أجزاء. وألقى بها وسط مزبلة عمومية يوم ١١ سبتمبر عام ١٩٣٩. وقبل ذلك بخمسة عشر يوما تقدم الزوج إلى البوليس يخبر عن اختفائها. فى هذه الأثناء انبعث الحقيقة من داخل الكيس لتكشف عن الزوج القاتل. لكن مع ذلك لم يتم الزوج أى قتل. فالعملية لم تكتشف أبدا. إلا هذه المرة عندما وصلت إلى آذان صحى. وهنا بدأت المشكلة. وبعد أن تولت الصحافة نشر الخبر فى الصفحة الأولى. الذى جعل من مكتب الوسيطة أسطورة حقيقية بفضل هذا الحدث الغريب الذاهل المذهل.

لقد حرص الخبير السرى ألا يطلع الصحفيين على أنه قد عثر على القاتل فى باريس. الذى استغل تشرد الحرب فغير اسمه. وتحول إلى رجل عاثور محترق يعيش متوحدا فى حجرة تحت السلم داخل منزل صغير فى إحدى الضواحى. يحتله أبناء لاجئة الأكرويات وهم جيش من الأطفال يظهرون عند نهاية كل أسبوع.. أما لاجئة السريك فكان لها الوجود الفعلى باستمرار وطبقا للوصف الذى أعطته الوسيطة. ومع ذلك وبعد أن فكر الخبير السرى طويلا فى صمت فى آخر فصل غامض من هذه المسرحية الغريبة.. وبعد أن نشرت الصحف الخبر. تقدم رجل طالبا مقابلة الوسيطة. إنه واحد من عمال الحفر الذين عملوا فى عام ١٩٥٢ فى هدم الغيطات حيث عاش القاتل خمسة عشر عاما مع زوجته التعيسة. وكان هذا العامل هو الوحيد الذى يملك مفتاح ذلك السر العجيب.

عندما فرغ ورقا يأخذ الألواح الخشبية.. عثر على حقيبة حديدية صغيرة وقد غطاها الصدأ. ووجد بداخلها كراسة. بها مجموعة من الصور والخطابات المكتوبة باللغة الأسبانية. كما تم العثور على بعض الأظرف الآتية من أمريكا الجنوبية. فأغلق العامل الحقيبة وذهب ليسلمها لأحد شخصين تماما فى هذه القضية.

وعندما سأل الخبير السرى عن هذين الشخصين.. قيل له إنهما الوسيطة وزوجها. وكانت تلك هى النهاية المتوقعة التى جعلت الخبير السرى يحتفظ دائما بابتسامته الكبيرة الخالدة □